

مُتَبَرِّرُونَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ
المحاضرة ٥: تعريف مُصْطَلِحَاتِنَا
أر. سي. سبرول

لَقَدْ كُنَّا نَبْحَثُ فِي نَشْرِ لُوثِرٍ لِاحْتِجَاجَاتِهِ الْخَمْسَةِ وَالتِّسْعِينَ عَامَ ١٥١٧ وَمِنْهَا فِي الْمَفْهُومِ الْكَاثُولِيكِيِّ لِلتَّبْرِيرِ. فَفِي احْتِجَاجَاتِهِ، طَرَحَ تَسْأُولَاتٍ بِشَأْنِ نِظَامِ التَّبْرِيرِ بِأَكْمَلِهِ الَّذِي تَبَنَّتْهُ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ. فِي هَذَا التَّوْقِيْتِ، كَانَ لُوثِرٌ لَا يَزَالُ مُؤْمِنًا مُخْلِصًا بِالنِّظَامِ الْكَاثُولِيكِيِّ، وَلَكِنْ بَدَأَتْ الْأَسْئَلَةُ تُسَاوِرُهُ وَمِنْ بَيْنِهَا مَسْأَلَةُ "زَوَائِدِ الْفَضَائِلِ". إِذْ كَانَتْ زَوَائِدُ الْفَضَائِلِ جَوْهَرِيَّةً لِمَفْهُومِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ بِرُمَّتِهِ.

فَجَمِيعُنَا يَعْلَمُ كَيْفَ تَسَبَّبَ الْجِدَالُ بِشَأْنِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ بِعَاصِفَةٍ حَامِيَةٍ وَقُتْنِيذٍ بِسَبَبِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانَ يُوهَانُ تِيئَزِلُ يَبِيعُ بِهَا صُكُوكِ الْعُفْرَانِ، لَكِنَّ السُّؤَالَ الْأَهَمَّ هُوَ مَا أَمَرَ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ بِرُمَّتِهَا؟ وَمِنْ أَيْنَ نَشَأَتْ؟ أَقُولُهَا ثَانِيَةً، لَقَدْ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ تَدْرِيجِيًّا عَلَى مَدَارِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ. لَقَدْ كَانَ يَسْتَنِدُ أُسَاسًا إِلَى فِكْرَةِ إِعْطَاءِ الْمَسِيحِ لِطُرُسِ الْمَفَاتِيحِ إِلَى الْمَلَكُوتِ أَوْ مَفَاتِيحِ الْمَلَكُوتِ. وَعَلَيْهِ، كَانَ يُنْظَرُ إِلَى الْبَابَا بِأَنَّهُ فِي مَنْصِبِ حَامِلِ مَفَاتِيحِ الْمَلَكُوتِ، وَمِنْهَا مَفَاتِيحُ السُّلْطَانِ عَلَى تَقْسِيمِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ وَتَوَزِيْعِهَا. فَعَلَى قَوْلِ الرَّبِّ يَسُوعَ لِتِلَامِيذِهِ: "مَنْ عَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ نُعْفِرْ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أَمْسَكْتُمْ"، أَقَامُوا مَفْهُومَهُمْ.

فَصَارَتْ زَوَائِدُ الْفَضَائِلِ فِي مُقَدِّمَةِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْكَامِلَةِ لِبَيْعِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ وَفِي مَرَكِّزِهَا. وَفَضَائِلُ الزَوَائِدِ هِيَ خِزَانَةٌ تَحْتَوِي عَلَى قَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنَ اسْتِحْقَاقَاتِ، وَلِلْكَنِيسَةِ السُّلْطَةَ لِتَوَزِيْعِهَا عَلَى مَنْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى اسْتِحْقَاقِ. وَفِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ تَمَثَّلَ الْإِيدَاعُ الرَّئِيسِيُّ لِزَوَائِدِ الْفَضَائِلِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْمَسِيحِ، لَكِنَّ لَمْ يَكُنِ اسْتِحْقَاقِ الْمَسِيحِ وَحْدَهُ مَوْجُودًا فِي الْخِزَانَةِ لِأَنَّ مَفْهُومَ زَوَائِدِ الْفَضَائِلِ لَا يَزَالُ حَاضِرًا فِي شَرِكَةِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ. فَبِالإِضَافَةِ إِلَى اسْتِحْقَاقِ يَسُوعَ، كَانَتْ الْخِزَانَةُ تَحْوِي اسْتِحْقَاقِ مَرْيَمَ، وَبِجَانِبَيْهِمَا أُضِيفَتْ اسْتِحْقَاقَاتُ الْقِدِّيسِينَ.

لَا يَضُمُّ مَنْظُورُ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، تَارِيحِيًّا، سِوَى عَدَدٍ قَلِيلٍ لِلْعَايَةِ مِمَّنْ مَاتُوا وَدَخَلُوا مُبَاشَرَةً إِلَى السَّمَاءِ. إِنَّمَا الْعَالِيَّةُ الْعُظْمَى مِمَّنْ مَاتُوا، الَّذِينَ مَاتُوا بِأَثَامِهِمُ الَّتِي لَا تَزَالُ فِي نَفْسِهِمْ، يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِمُ الذَّهَابُ إِلَى الْمَطْهَرِ، لِلتَّظْهِرِ مِنْ هَذِهِ الْآثَامِ وَخَوِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى السَّمَاءِ. لِلتَّأَكِيدِ، الْمَطْهَرُ وَلَيْسَ الْجَحِيمُ. فَهُمْ لَا يَذْهَبُونَ إِلَى الْجَحِيمِ لِيُدَانُوا. الْمَطْهَرُ لَيْسَ مَكَانًا لِلدُّنُوتَةِ، إِنَّمَا مَكَانًا لِلتَّظْهِرِ، وَفِي النِّهَايَةِ سَيَكُونُ الْمَصِيرُ النِّهَايِيُّ لِكُلِّ مَنْ فِيهِ، هُوَ السَّمَاءُ، لَكِنَّ لَيْسَ قَبْلَ إِتْمَامِ مَرَحَلَةِ تَظْهِرِهِمْ.

لَكِنَّ الْمَشْكَالَةَ الْآنَ فِي أَنَّ الَّذِينَ فِي الْمَطْهَرِ لَيْسَ فِيهِمُ الْبِرُّ الْكَافِي لِيَنْفُلَهُمْ مُبَاشَرَةً إِلَى السَّمَاءِ. وَكَمَا قُلْتُ: هِيَ قَلَّةٌ قَلِيلَةٌ، تَارِيخِيًّا، مِمَّنْ مَاتُوا دُونَ آثَامٍ فِي نَفْسِهِمْ وَبِاسْتِحْقَاقٍ كَافٍ لِإِدْخَالِهِمْ مُبَاشَرَةً إِلَى السَّمَاءِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ مَا يَكْفِي مِنَ الْاسْتِحْقَاقِ فَحَسْبُ لِلدُّخُولِ إِلَى السَّمَاءِ، لَكِنَّ كَانَ لَدَيْهِمْ نَوْعٌ اسْتِحْقَاقٍ ثَالِثٌ لَمْ نُنَاقِشْهُ بَعْدُ. لَقَدْ تَنَاولْنَا سَابِقًا الْفَرْقَ بَيْنَ الْاسْتِحْقَاقِ السَّخِيِّ وَالْاسْتِحْقَاقِ الْمُعَادِلِ فِي سِرِّ التَّوْبَةِ وَالْاعْتِرَافِ.

لَكِنَّ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْاسْتِحْقَاقِ السَّخِيِّ وَالْاسْتِحْقَاقِ الْمُعَادِلِ، كَانَ هُنَاكَ التَّوَعُّ الثَّالِثُ مِنَ الْاسْتِحْقَاقِ الَّذِي كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ "الْاسْتِحْقَاقُ الْفَائِئِقُ"، الْاسْتِحْقَاقُ الَّذِي يَنَالُهُ مَنْ يَقُومُ بِأَعْمَالٍ فَائِقَةٍ، لَيْسَ وَاجِبًا، بَلْ فَائِقًا. فَالْأَعْمَالُ الْفَائِقَةُ هِيَ تِلْكَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ جِدًّا، وَالْجَدِيدَةُ بِالْاسْتِحْقَاقِ جِدًّا، بِحَيْثُ تَتَجَاوَزُ تَلْيِيبَةَ الْوَاجِبِ. إِنَّهُ اسْتِحْقَاقٌ زَائِدٌ أَوْ إِضَافِيٌّ يَقُومُ بِهَا عَدَدٌ قَلِيلٌ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، الْفَيَامُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْفَائِقَةِ، أَوْ أَعْمَالٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُهُ لِدُخُولِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُودَعُ هَذِهِ الْاسْتِحْقَاقَاتُ الْإِضَافِيَّةُ إِلَى زَوَائِدِ الْفَضَائِلِ، وَمِنْ تِلْكَ الْخِزَانَةِ تَسْتَطِيعُ الْكَنِيسَةُ مِنْ خِلَالِ الْبَابِ وَبِسُلْطَانِهِ أَنْ تَمْنَحَ هَذِهِ الْاسْتِحْقَاقَاتِ لِمَنْ يَنْفُضُهُمْ. لَدَا، مَا كَانَ يَحْدُثُ فِي نِظَامِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ بِرُمَّتِهِ، هُوَ أَنَّهُ بِالتَّبَرُّعِ بِالصَّدَقَاتِ وَبِشِرَاءِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ، تُجْرَى عَمَلِيَّاتٌ سَحَبٍ مِنْ هَذِهِ الْخِزَانَةِ، إِنْ جَارَ التَّعْيِيرُ، وَمَنْحَ الْاسْتِحْقَاقَاتِ لِلَّذِينَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهَا فِي الْمَطْهَرِ حَتَّى يَتِمَّ كُنُوزًا مِنْ دُخُولِ السَّمَاءِ.

وَبِهَذَا نَحْتَمِ تَطَرُّقَنَا التَّمْهِيدِيَّ إِلَى مَفْهُومِ التَّبَرِيرِ لَدَى الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ. كَمَا أَنِّي سَأَتَعَمَّقُ أَكْثَرَ فِيهِ حِينَ نَتَنَاوَلُ تَنَاقُضَاتٍ أُخْرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَنْظُورِ الْبِرُوتِسْتَانِيِّ. لَكِنَّ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ، كَانَتْ صِيحَةً لَوْثَرٍ بِالطَّبْعِ هِيَ "سُولَا فِيدِي"، التَّبَرِيرُ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ. وَالْآنَ، سَتَقْضِي بَعْضَ الْوَقْتِ لِنَبْحَثَ فِي تَعَالِيمِ بُولْسَ عَنْهُ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ. وَلَكِنَّ فَقَطْ كَمُقَدِّمَةٍ لِلْمَنْظُورِ الْبِرُوتِسْتَانِيِّ لِلتَّبَرِيرِ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ، أُرِيدُ أَنْ أَقْضِي بَعْضَ الْوَقْتِ لِتَعْرِيفِ الْمُصْطَلَحَاتِ.

أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ، كَلِمَةُ "تَبَرِيرٍ" ذَاتُهَا. الْكَلِمَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ "justification" "تَبَرِيرٍ" مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْكَلِمَةِ اللَّاتِينِيَّةِ *iustificare* الَّتِي تَعْنِي حَرْفِيًّا "يَجْعَلُ بَارًّا" أَوْ "يَجْعَلُ صَالِحًا". تَمَثَّلَتْ إِحْدَى الْمَشْكَالَاتِ، تَارِيخِيًّا، الَّتِي أَوْجَدَتْ هَذَا الْجِدَالَ بِرُمَّتِهِ مِنْذُ الْقُرُونِ الْأُولَى، فِي أَنَّ الْأَبَاءَ اللَّاتِينِيِّينَ لَمْ يَكُونُوا يَقْرَؤُونَ وَيُشْكَلُونَ عَقِيدَتَهُمْ مِنَ التَّرْجُمَةِ الْيُونَانِيَّةِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، بَلْ مِنَ الْفُولْجَاتَا، وَهِيَ التَّرْجُمَةُ اللَّاتِينِيَّةُ لَهُ. فَعِنْدَمَا تَذْكَرُ التَّرْجُمَةَ اللَّاتِينِيَّةَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ التَّبَرِيرِ، فَإِنَّهَا تَسْتَخْدِمُ اللَّفْظَةَ اللَّاتِينِيَّةَ *iustificare*، الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الصِّيغَةِ الْقَانُونِيَّةِ لِنِظَامِ الْقَانُونِ الرُّومَانِيِّ. وَمَرَّةً أُخْرَى، أَنْ "يَجْعَلُ بَارًّا" يَعْنِي أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ لَيْسَ بَارًّا، وَكَلِمَةُ "يُبَرِّرُ" تَعْنِي "أَنْ يَجْعَلَهُ بَارًّا أَوْ حَتَّى أَنْ يَصِيرَ بَارًّا حَقًّا فِي ذَاتِهِ وَمِنْ ذَاتِهِ".

وَعَلَيْهِ كَانَ نِظَامُ التَّبَرِيرِ الَّذِي نَشَأَ هُوَ نِظَامٌ فَهْمٌ كَيْفٌ يُصْبِحُ الشَّخْصُ الشَّرِيرُ صَالِحًا أَوْ بَارًّا. وَالْآنَ عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ عَمَلِيَّةِ أَنْ نَكُونَ صَالِحِينَ حَقًّا، فَإِنَّنَا لَا نَتَحَدَّثُ عَنِ التَّبَرِيرِ، بَلْ عَنِ التَّقْدِيسِ، لِذَلِكَ نُوْمِنُ بِأَنَّ التَّبَرِيرَ

يَحْدُثُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَتَّبَعُهُ التَّقْدِيسُ. أَوْ بِحَسَبِ الْمَنْظُورِ الْكَاثُولِيكِيِّ الْقَدِيمِ، بِسَبَبِ اسْتِخْدَامِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ *iustificare*، كَانَ التَّقْدِيسُ، فِي الْوَاقِعِ، يَسِيْقُ التَّبْرِيرَ لِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يُعْلِنَكَ بَارًّا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُصِيحَ بَارًّا حَقًّا. لَكِنَّ الْكَلِمَةَ الْيُونَانِيَّةَ *dikaiosune* لَا تَعْنِي "جَعَلَ الْفَرْدَ بَارًّا"، بَلْ تَعْنِي "اِحْتِسَابَ الْبِرِّ أَوْ حِسَابَهُ" أَيِ التَّعَامُلِ مَعَ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنَّهُ بَارٌّ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ جَوْهَرَ مَنْظُورِ الْإِصْلَاحِ هُوَ أَنَّهُ بَيْنَمَا لَا نَزَالُ فُجَّارًا، أُعْلِنُ تَبْرِيرَنَا بِاِحْتِسَابِ اللَّهِ بِرِّ الْمَسِيحِ لَنَا، الْمَفْهُومُ الَّذِي سَأَشْرَحُهُ بِدَوْرِي لِاحِقًا.

فَلِدَا، حِينَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْنَا يَرَى أَنَّنَا مَا زِلْنَا خُطَاةً وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ، بِمُجَرَّدِ أَنْ نُؤْمِنَ، يَحْسِبُنَا أَوْ يَحْتَسِبُنَا أَوْ يُعْلِنُ أَنَّنَا أَبْرَارًا. كَانَ شِعَارُ لُوثَرٍ لِتَوْضِيحِ هَذَا، رُبَّمَا سَمِعْتُمُوهُ قَبْلًا، الْعِبَارَةُ اللَّاتِينِيَّةُ *simul justus et peccator*، وَكَانَتْ الصِّيغَةُ الَّتِي حَاوَلَ بِهَا تَعْرِيفَ هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي فِيهَا لَا نَكُونُ أَبْرَارًا فِي أَنْفُسِنَا وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَمَّا اللَّهُ نَعُدُّ أَبْرَارًا. فَعِبَارَةُ *simul justus et peccator* تَعْنِي، سَنَفْسِمُهَا: *simul* الَّتِي مِنْهَا اشْتَقَفْنَا "simultaneous"، فَكَلِمَةُ *simul* تَعْنِي "فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ". *Simul justus* "صَالِحٌ أَوْ بَارٌّ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ". أَمَّا *Et* مَاذَا تَعْنِي؟ هَلْ هِيَ الْفِعْلُ الْمَاضِي مِنْ يَأْكُلُ "To eat" فِي اللَّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ؟ *Et* تَعْنِي بِبَسَاطَةٍ "و". أَتَتَذَكَّرُونَ كَلِمَةَ يُولْيُوسَ قَيْصَرَ الْأَخِيرَةَ حِينَ طُعِنَ الَّتِي يُعْتَقَدُ أَنَّهَا كَانَتْ "Et tu, Brute?" الَّتِي تَعْنِي "وَأَنْتَ يَا بُرُوتُسُ؟"، إِذَنْ *et* تَعْنِي بِبَسَاطَةٍ "و". *simul justus et* "فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، بَارٌّ وَ..." *peccator* الَّتِي تَعْنِي "خَاطِيًا". نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْخَطَايَا الصَّغِيرَةِ بِاعْتِبَارِهَا هَفَوَاتٍ. فَإِنَّ قُلْنَا إِنَّ شَخْصًا مَا طَاهِرٌ، فَإِنَّا نَقُولُ إِنَّهُ بِلَا خَطِيئَةٍ، وَهَذَا يَأْتِي مِنَ الْكَلِمَةِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي تَعْنِي الْخَطِيئَةَ.

فَكَانَ لُوثَرُ يَقُولُ: "خُطَاةٌ وَأَبْرَارٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ". قَدْ بَيَّنَدُوا هَذَا، لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، تَنَاقُضًا. فَمَا هُوَ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ؟ شَيْءٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ "أ" وَ "ضِدَّ أ" فِي آنٍ وَاحِدٍ وَبِالْمَعْنَى ذَاتِهِ أَوْ فِي الْعِلَاقَةِ عَيْنِهَا. فَمَا يَقُولُهُ لُوثَرُ هُنَا: "نَحْنُ فِي آنٍ وَاحِدٍ "أ" وَ "ضِدَّ أ"، أَبْرَارٌ وَخُطَاةٌ، لَكِنَّ لَيْسَ فِي الْعِلَاقَةِ عَيْنِهَا". فِي أَنْفُسِنَا وَمِنْ أَنْفُسِنَا نَظَلُّ خُطَاةً، لَكِنَّا أَبْرَارٌ بِفَضْلِ انْتِقَالِ بَرِّ الْمَسِيحِ إِلَيْنَا، بِحُكْمِ احْتِسَابِ بَرِّهِ. قُلْنَا فِي بَدَايَةِ دِرَاسَتِنَا لِلْمَنْظُورِ الْكَاثُولِيكِيِّ عَنِ التَّبْرِيرِ إِنَّهُ يَبْدَأُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ بِغَرَسِ النِّعْمَةِ. وَعَلَيْهِ، حَسَبَ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، يَحْطَى الْإِنْسَانُ الْمُبَرَّرُ بِمَا يُبَرِّرُهُ عَلَى أَسَاسِ الْبِرِّ الْمَغْرُوسِ الَّذِي، حِينَهَا، يَمْتَلِكُهُ الْمُؤْمِنُ بِطَبِيعَتِهِ. أَمَّا الْمَنْظُورُ الْبُرُوتِسْتَانِيُّ يَقُولُ إِنَّنَا لَا نَتَبَرَّرُ بِغَرَسِ الْبِرِّ، بَلْ بِاِحْتِسَابِهِ.

تَعْلَمُونَ مَا قُلْتُهُ سَابِقًا، فِي عَصْرِ الْإِصْلَاحِ جُرِّبَتْ كُلُّ أَنْوَاعِ الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّعَلُّبِ عَلَى هَذَا الْإِنْشِقَاقِ الْكَارِثِيِّ دَاخِلَ الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ، وَكَانَ آخِرُهَا فِي رِيجنِسْبُورجِ إِذْ افْتَرَبُوا مِنْ رَأْبِ الصَّدْعِ وَخَوَّ الْإِنْشِقَاقِ وَحَلَّ الْمُعْضَلَةَ الْلَاهُوتِيَّةَ، لَكِنَّ النُّقْطَةَ الشَّائِكَةَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ حُلُّهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَوْ الْآنَ هِيَ أَمْرُ الْاِحْتِسَابِ. لَطَالَمَا رَفَضَتِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ مَفْهُومَ أَنَّنَا نَتَبَرَّرُ عَلَى أَسَاسِ الْبِرِّ الْمُحْتَسَبِ، أَوْ الْبِرِّ الَّذِي لَيْسَ لَنَا أَوْ مِنَّا، أَوْ الْبِرِّ

الذِي أَطْلَقَ عَلَيْهِ لُوثَرُ اسْمَ *alienum iustitiam*، بَرًّا خَارِجِيًّا، بَرًّا خَارِجَنَا أَوْ لَيْسَ مِنَّا، بَرًّا مُحْسُوبًا لَنَا لَكِنَّهُ لَيْسَ بَرَّنَا. إِنْ سَمَحَ الْوَقْتُ، سَنَسْتَظِرُّ فِي ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ لِاحْتِقَاقِ، لَكِنِّي أَحَاوِلُ فَقَطَّ أَنْ أَقْدِمَ لَكُمْ التَّعْرِيفَ الْأَسَاسِيَّ لِلتَّبَرُّيرِ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ.

ثَانِيًا، حَرْفُ الْحَرْبِ "الْبَاءُ". هَذَا حَرْفٌ جَرٌّ بَسِيطٌ، وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلًا أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى صِيغَةِ الْمَجْرُورِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْوَسِيلَةِ، فَإِذَا سَأَلْتَ الْكَيْسِيَّةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ: "بِأَيِّ وَسِيلَةٍ نَتَّبَرُّ؟" سَتَرُدُّ: "الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ لِتَّبَرُّرِنَا هِيَ الْمَعْمُودِيَّةُ". أَتَدَّكَّرُونَ عِنْدَمَا قُلْتُمْ فِي الْبِدَايَةِ إِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْمَعْمُودِيَّةَ هِيَ مَا تَبْدَأُ عَمَلِيَّةَ التَّبَرُّيرِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ أَوْ الْوَسِيلَةُ الَّتِي بِهَا يَتَّبَرَّرُ الْمَرْءُ.

اسْمَحُوا لِي بِدَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ فَحَسْبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ مَفْهُومِ "الْعِلَّةِ الْوَسِيلِيَّةِ". أَحَدُ أَقْدَمِ أَسْئَلَةِ الْفَلَسَفَةِ هُوَ مَسْأَلَةُ الْحَرَكَةِ وَالتَّغْيِيرِ. رُبَّمَا تَدَّكَّرُونَ مَقُولَةَ هِيرَاقْلِيطُسَ: "أَنْتَ لَا تَنْزِلُ إِلَى النَّهْرِ ذَاتِهِ مَرَّتَيْنِ أَبَدًا، لِأَنَّهُ يَحُلُولُ الْوَقْتِ الَّذِي تَضَعُ فِيهِ قَدَمَكَ الثَّانِيَةَ فِي النَّهْرِ، يَكُونُ قَدْ جَرَى، وَأَنْتَ قَدْ تَغَيَّرْتَ إِذَا كَبُرْتَ وَلَوْ لِبَضْعِ ثَوَانٍ". وَيَقُولُ أَيْضًا، كُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ. التَّغْيِيرُ هُوَ السِّمَةُ الثَّابِتَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْخَلِيقَةِ وَالْمَحْدُودِيَّةِ. وَفِي مَنْظُورِ أَرِسْطُو، كَانَ التَّغْيِيرُ أَحَدَ أَوْجُهِي الْحَرَكَةِ. إِذَا تَمَعَنَّ فِي هَذَا وَسَأَلَ نَفْسَهُ: "هَلْ هُنَاكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ تَتَغَيَّرُ بِهَا الْأَشْيَاءُ؟ أَمْ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ فِي الْوَاقِعِ، هُوَ يَقُولُ فِي أَثْنَاءِ بَحْثِهِ عَنِ التَّغْيِيرِ إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ سَبَبِ التَّغْيِيرِ، فَمِنَ السَّدَاجَةِ افْتِرَاضُ أَنَّ الْأَسْبَابَ فَرْدِيَّةٌ لِأَنَّهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ يَحْدُثُ التَّغْيِيرُ بِتَطْبِيقِ عِدَّةِ أَشْيَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ.

فَقَدْ اسْتَخْدَمَ الْمِثَالَ التَّوْضِيحِيَّ الْكَلَّاسِيكِيَّ لِقِطْعَةٍ فَنِّيَّةٍ، وَمَنْحُوتَةٍ، وَتِمثَالٍ صُنِعَ لِغَرَضِ التَّفْرِيقَةِ بَيْنَ مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْأَسْبَابِ. كَانَ يَقُولُ إِنَّ الْعِلَّةَ الْفَاعِلَةَ هِيَ السَّبَبُ الْجَوْهَرِيُّ الَّذِي يُحَقِّقُ التَّغْيِيرَ؛ فَالْعِلَّةُ الرَّئِيسِيَّةُ الْفَاعِلَةُ لِتَصْمِيمِ الْمَنْحُوتَةِ هِيَ النَّحَاتُ. إِنَّهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُحْدِثُ كُلَّ التَّغْيِيرَاتِ، لَكِنْ هُنَاكَ أَيْضًا الْعِلَّةُ الْمَادِّيَّةُ الَّتِي هِيَ الْمَنْحُوتَةُ سَوَاءً نُحِتَ التِّمثَالُ مِنْ قِطْعَةٍ خَشَبٍ أَوْ قِطْعَةٍ رُخَامٍ، وَإِلَذَا فَهُوَ يُعَرِّفُ الْعِلَّةَ الْمَادِّيَّةَ أَنَّهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ الَّتِي بِهَا صُنِعَ الشَّيْءُ أَوْ عُيِّرَ. لَكِنْ عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ خَلْقِ الْكُونِ، مَا الَّذِي نَعْتَبِرُهُ الْعِلَّةَ الْمَادِّيَّةَ؟ لَا شَيْءٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ، مَا عَدَا الْعَدَمَ عَلَى الْأَقْلِ. لَكِنَّ اللَّهَ يُعَدُّ الْعِلَّةَ الْفَاعِلَةَ وَالْكَافِيَةَ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. عِنْدَمَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَالَمَ، لَمْ يَخْلُقْهُ مِنْ جَوْهَرٍ أَوْ مَادَّةٍ كَانَتْ مَوْجُودَةً سَابِقًا، بَلْ لَقَدْ خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ *ex nihilo*.

لَكِنَّ "الْعِلَّةَ الْمَادِّيَّةَ" هِيَ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا الشَّيْءُ؛ وَالْعِلَّةُ الْفَاعِلَةُ هِيَ الشَّخْصُ الَّذِي يَصْنَعُهَا. أَمَّا "الْعِلَّةُ الصُّورِيَّةُ" فَهِيَ الْفِكْرَةُ أَوْ الْمَخَطُّ الَّذِي يَسْتَحْدِمُهُ الْفَنَّانُ لِاسْتِحْدَاثِ مَوْضُوعِهِ. فَهُوَ لَا يَبْدَأُ بِنَحْتِ قِطْعَةِ الرُّخَامِ بِلَا أَيِّ فِكْرَةٍ فِي ذَهْنِهِ عَنِ الشَّكْلِ الَّذِي سَتَبْدُو عَلَيْهِ عِنْدَ الْانْتِهَاءِ. إِذْ يَنْبَغِي لَهُ امْتِلَاكُ صُورَةٍ لَهَا فِي ذَهْنِهِ. وَمِنْ نَمِّ "الْعِلَّةِ"

الغائية" هي العَرَضُ وَالْقَصْدُ مِنْ صُنْعِ شَيْءٍ مَا. فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، رُبَّمَا تَكُونُ الْغَايَةُ تَجْمِيلَ بُسْتَانِ الْإِمْبْرَاطُورِ أَكْثَرَ، أَوْ نَحْتِ مَايْكِلِ أَجْلُو تَمَثَالًا لِتَفْخِيمِ جَمَالِ كَنِيسَةِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. هَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الْغَايَةُ.

حَسَنًا، أَمَّا "الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ" فَهِيَ الْأَدْوَاتُ الْمُسْتَخْدَمَةُ لِإِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ، فِي حَالَةِ نَحْتِ التَّمَثَالِ، الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ سَتَكُونُ الْمِطْرَقَةَ وَالْإِزْمِيلَ، أَيِ الْأَدْوَاتِ الْمُسْتَخْدَمَةِ وَالَّتِي يَتَمُّ مِنْ خِلَالِهَا التَّغْيِيرُ، الْأَمْرُ بَسِيْطٌ. لِذَلِكَ، عِنْدَمَا تَتَحَدَّثُ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ عَنِ الْمَعْمُودِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ، فَهِيَ تَعْنِي أَنَّهَا الْوَسِيلَةُ أَوْ الْأَدَاةُ الَّتِي بِهَا يَتَغَيَّرُ الْإِنْسَانُ إِلَى قَبُولِ النِّعْمَةِ أَوْ عَرَسِهَا فِيهِ. بَيْنَمَا الْمُصْلِحُونَ يَقُولُونَ: "لا، الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ الْوَحِيدَةُ لِلتَّبْرِيرِ هِيَ الْإِيمَانُ". لَيْسَتْ الْمَعْمُودِيَّةُ وَلَا سِرَّ التَّوْبَةِ وَالْاعْتِرَافِ، بَلِ الْإِيمَانُ هُوَ الْعِلَّةُ الْوَسِيلِيَّةُ.

الجدير بالذكر، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اسْتِحْدَامِ كُلِّ مِنَ الْبُرُوتِسْتَانْتِ وَالْكَاثُولِيكِ لَعَةِ تَمْيِيزِ أَرْسُطُو لِلْعَلَلِ وَمُصْطَلَحَاتِهَا، فَقَدْ أَضَافَ كِلَا الْجَانِبَيْنِ عِلَّةً دَقِيْقَةً أُخْرَى أَطْلَقُوا عَلَيْهَا "عِلَّةُ الْاسْتِحْقَاقِ" لِلتَّبْرِيرِ، وَمَرَّةً أُخْرَى نَعُودُ إِلَى لُبِّ الْمُعْضَلَةِ. فَمَا الْأَسَاسُ الَّذِي عَلَيْهِ يُعْلِنُ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَارٌّ؟ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَاثُولِيكِيَّةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَارٌّ. أَمَّا فِي الْمَفْهُومِ الْمُصْلِحِ، الْأَسَاسُ الْوَحِيدُ لِتَّبْرِيرِ الْمُؤْمِنِ هُوَ بَرُّ الْمَسِيحِ. بَرُّ الْمَسِيحِ، بَرُّهُ وَحْدَهُ مَا يُبَرِّرُنَا. فِي الْوَاقِعِ، إِنَّ عِبَارَةَ "التَّبْرِيرِ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ"، هِيَ تَلْخِيصٌ لِمَفْهُومِ "التَّبْرِيرِ بِالْمَسِيحِ وَحْدَهُ".

حَسَنًا، لِذَلِكَ فِي الْعَقِيدَةِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ تَسْمَعُونَ عِبَارَةَ "سُولا فيدي"، الَّتِي تَعْنِي بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ، لَيْسَ بِالْإِيمَانِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ. وَعِبَارَةُ "سُولا جراتيا" الَّتِي تَعْنِي بِالنِّعْمَةِ وَحْدَهَا، لَا بِالْاسْتِحْقَاقِ بَلِ بِالنِّعْمَةِ، وَبِالْمَسِيحِ وَحْدَهُ، لَا بِالْمَسِيحِ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، فِي مُحَاضَرَتِنَا التَّالِيَةِ، سَنَصِلُ إِلَى الْكَلِمَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ عِبَارَةِ التَّبْرِيرِ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ، عِنْدَمَا نَتَمَعَّنُ فِي مَعْنَى نَوْعِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُبَرِّرُ فِي أَهْمِيَّتِهِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْفَدْيِيسِ أُنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَيْسِ لِكُلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْسِنِي الْأَلَمَ".